جهود ابن باديس ومنهجه في السيرة النبوية

بقلم: الأستاذ /حسين شرفه *

تمهيد : أولى المسلمون السيرة النبوية الشريفة اهتماما كبيراً، بعد كتاب الله تعالى وحديث النبي ﷺ ، ولا غرو فهي التجربة العملية الفذة لحقيقة الإسلام والترجمان لكثير من الأحكام التشريعية في القرآن الكريم، ومن هنا لم تكن السيرة النبوية مجرد تاريخ بل هي تاريخ يرتبط بالتطبيق العملي للإسلام، وذلك هو معنى الأسوة الحسنة التي يقررها القرآن في قوله تعالى: ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ (الأحزاب :21) .

ولم تتوقف الكتابة عن السيرة منذ ظهرت بواكير التدوين فيها مع النصف الثاني من القرن الأول الهجري، ولم يخل عصر من عصور التاريخ الإسلامي من الكتابة فيها، وللمشارقة في ذلك باع طويل إذا ما قورنوا باخوانهم المغاربة، الذين حفلوا كثيراً بالعلوم العقلية دون النقلية، ويبدو أن تلك سمة تطبع العقل المغاربي، ومن هنا كانت الكتابة في السيرة لدى المغاربة قليلة، ونلحظ ذلك جليا من خلال استعراض تاريخ الجزائر الثقافي، فعلى مدار أربعة قرون من الزمن لم تؤلف في السيرة النبوية سوى كتب معدودة، ولم يشتهر من العلماء في هذا المجال سوى ثلة قليلة منهم: عبد الكريم الفكون وأحمد المقري وأحمد بن القاسم البوني، فوق أن تاريخ السيرة قد اختلط عند الكثير من الجزائريين بشعر المديح

* أستاذ السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بمعهد العلوم الإسلامية بباتنة.

النبوي وبالحديث وفروعه وبرحلات الحج.(1)

والحق أنه ليس بين أيدينا إلى يومنا هذا - فيما نعلم- كتاباً جامعاً في السيرة النبوية من تأليف عالم من علماء الجزائر، حتى في العصر الحديث لم تتعلق همة عالم من علمائنا بتأليف كتاب في ذلك وربما كان سبب ذلك، الاعتقاد بأن مجال السيرة قد أشبع كتابة وبحثاً ولم يبق فيه زيادة لمستزيد، وهذا مخالف للصواب لأن السيرة النبوية تظل في حاجّة إلى الكتابة باعتبارها التجربة الفذة في تاريخ الإسلام، ولأنها تمثل مصدراً لاستنباط الأحكام وتنزيلها على الواقع، وهو ما تفطن إليه الكثير من العلماء في العصر الحديث مثل: الدكتور مصطفى السباعي والشيخ : محمد الغزالي والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي والدكتور عماد الدين خليل والأستاذ محمد منير الغضبان وغيرهم.

وتأتي هذه الدراسة لتبحث في تراث واحد من إعلام الفكر الجزائري الحديث وهو الشيخ: عبد الحميد بن باديس (1889- 1940) وتبرز إهتمامه بالسيرة النبوية .

ونحب منذ البداية أن نؤكد ان ابن باديس لم يكتب عن السيرة النبوية -كما لم يكتب عن غيرها من العلوم والفنون- بروح الباحث المتخصص أو الكاتب المتفرغ، لا لأنه لا يمتلك المؤهلات العقلية والثقافية التي تمكنه من البحث أو الكتابة، فالرجل بشهادة الشيخ البشير الإبراهيمي قد أوتي " ملكة بيانية راسخة وسعة اطلاع على السنة وتفقه فيها وغوص على أسرارها.وإحاطة وباع مديد في علم الاجتماع البشري وعوارضه.وإلمام بمنتجات العقول ومستحدثات الإختراع ومستجدات العمران، يمد ذلك كله قوة خطابية قليلة النظير، وقلم كاتب لا تفل له شفاه".(2)

وهذا الذي يقوله الشيخ الابراهيمي عن صاحبه ليس مجرد مدح كاذب أو مجاملة، بل يمكن أن يلمسه القارىء بسهولة، وإلا أفيعجز من فسّر القرآن الكريم كاملا وشرح موطأ الإمام مالك حتى أتمه وترك تراثا كبيرا في الأصول والعقائد والتاريخ والسياسة والاجتماع وغيرها أن يؤلف كتابا في علم من العلوم النقلية أو العقلية؟

الحق أن ابن باديس نذر نفسه وعلمه لأمته، فقد إختار أن يكون

مربيا ومصلحا لا أن يكون مؤلفا وكاتبا، أو كما كان يقول:" شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب"، وقد حدد فكرته والغاية التي يصبو إليها في محاضرة ألقاها أمام أعضاء جمعية التربية والتعليم الإسلامية حين تساءل:" لمن أعيش أنا ؟" ثم أجاب:" أعيش للإسلام والجزائر ".(3)وهو من تعهد أمام جمعيات: التربية والتعليم، الشباب الفني ، كشافة الرجاء، بقوله :" إنني أعاهدكم على أنني أقضي بياضي على العربية والإسلام كما قضيت سوادي عليهما، وإنها لواجبات...وإني سأقصر حياتي على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن هذا عهدي لكم ". (4)

ولا تزال الأجيال تردد نشيده الخالد :(5)

هذا نظام حياتنا
بالنور خطى وباللهب
هذا لكم عهدي به
حتى أوسد في الترب
فإذا هلكت فصيحتي
تحيا الجزائر والعرب

هذا هو المنهج الذي اختاره ابن باديس في حياته، أن يعيش للإسلام والجزائر ويضحي في سبيلهما بأغلى ما يملك، فقد كرّس حياته لتحقيق مبدأ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:
" **الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا** ".

فطبيعة ابن باديس الحركية ومنهجه في التربية والإصلاح حالت دون تفرغه للكتابة والتأليف، لذلك كان أكثر ما وصلنا من تراثه الفكري عبارة عن محاضرات وخطب وتقارير ومقالات صحفية...في حين أن نشاطه العلمي لم يصلنا منه إلا النزر القليل، فيما كان يكتب كملخصات أو مختارات، كما في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ومجالس التذكير من حديث البشير النذير، أو ما يتولى بعض أصدقائه وتلامذته تدوينه ثم نشره، فقد بلغ تراثه المدون ستة أجزاء يقع في ألفين وأربع مئة واثنين وتسعين (2492) صفحة، أصدرته وزارة الشؤون الدينية وطبع بدار البعث بقسنطينة بين سنتي (1402-1415هـ/ 1982-1994م) ، ولو أتيح لتراث ابن باديس وإنتاجه العلمي أن ينقل كاملا لكنّا بصدد كنز عظيم لا يقدر بثمن، ولكن بسبب تقصير التلاميذ ضاع على الأمة الجزائرية خير كثير.

ابن باديس والسيرة النبوية:

في سنة 1911م نال ابن باديس شهادة العالمية من جامع الزيتونة ثم اشتغل مدرسا به قبل ان يسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج سنة 1912م وهناك التقى بشيخه "حمدان الونيسي"، وتعرف لأول مرة على البشير الإبراهيمي، وفي طريق عودته عرّج على مصر والتقى فيها بعالمين من علمائها هما :" محمد الديار المصرية وأبو الفضل الجيزاوي شيخ علماء الاسكندرية فآجازه كل منهما " .

وفي سنة 1913م عاد ابن باديس إلى الجزائر وعمره يومها أربعا وعشرين سنة فبدأ نشاطه التعليمي، فكانت السيرة النبوية أول ما بدأ به وقد وقع اختياره على كتاب :" الشفا بتعريف حقوق المصطفى " للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي المالكي، وفي هذا يقول: " ابتدأت القراءة بقسنطينة بدراسة الشفا للقاضي عياض بالجامع الكبير، حتى بدا لمفتي قسنطينة ابن الموهوب ان يمنعنا فمنعنا ". (6)

وكتاب الشفا الذي اختاره ابن باديس في بداية مشواره التربوي يتناول أخلاق وشمائل الرسول ﷺ ، وصفه الإمام شمس الدين الذهبي بأنه من أنفس وأجلّ وأشرف ما ألف القاضي عياض (7)، ووصفه صاحب كشف الظنون بقوله :" وهو كتاب عظيم النفع كثير الفائدة لم يؤلف مثله في الإسلام" .(8)

وقد شغف العلماء بالكتاب فوضعوا له الشروح والحواشي وخرّجوا أحاديثه وحرّروا ألفاظه، ويذكر "حاجي خليفة " في كشف الظنون أزيد من خمسة عشر شرحا وحاشية وتخريجا للكتاب.(9)

وهكذا كانت السيرة النبوية الشريفة أول علم بادر ابن باديس بتعليمه، وسبب ذلك أنه كان حريصا على تربية الناس وتعليمهم الأخلاق الإسلامية، فاختار الأسلوب التربوي الأمثل والأنجع وهو تجسيد تلك الأخلاق، فلم يجد أفضل من شمائل الرسول ﷺ، ولم يجد من أجاد في الكتابة عنها كصاحب الشفا. و قد اختار الشفا دون غيره من كتب السيرة خاصة تلك التي تتناولها بالطريقة التقليدية لادراكه أن المسلمين ليسوا في حاجة إلى معرفة تفاصيل حياة رسول الله

ﷺ بقدر ما هم في حاجة إلى أخلاقه وشمائله.

وواضح أن ابن باديس لم يكمل تدريس الكتاب بسبب منع المفتي له، و ليس بين أيدينا ما يدل على أنه عاد إلى تدريسه من جديد أو تدريس كتاب غيره في السيرة أو الشمائل النبوية، فقد انتقل من الجامع الكبير إلى الجامع الأخضر بعد أن طلب الإذن من الحكومة فأذن له (م.أريب) الكاتب العام للأمور الوطنية بدار العمالة إذ ذاك.(10)

السيرة النبوية من خلال تفسيره للقرآن الكريم :

المؤكد أن ابن باديس شرع في نفس السنة التي منع فيها من تدريس الشفا بالجامع الكبير في تفسير القرآن الكريم بالجامع الأخضر حتى ختمه بعد ربع قرن، وهذا تحول كبير يدل على نضج فكرة الإصلاح لدى ابن باديس، فقد أدرك أن القرآن الكريم هو ربيع القلوب و نور الأبصار وجلاء الأحزان وهو حبل الله المتين ونوره المبين وهو الذكر الحكيم والصراط المستقيم... كما وصفه الصادق المصدوقﷺ . فالقرآن وحده الكفيل بتكوين جيل رباني رسالي كالذي كوّنه أول مرة، وفي هذا يقول ابن باديس:" فإننا - والحمد لله - نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودهم". (11)

ولا شك أن ابن باديس وهو يفسر كتاب الله تعالى قد تحدث كثيرا عن سيرة رسول اللهﷺ ، ذلك أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للسيرة النبوية وهو الكتاب المعصوم المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ففي القرآن حديث مستفيض أو مقتضب عن بعض الأحداث التاريخية التي واكبت عصر النبوة مثل غزوات الرسول ﷺ خاصة بدر وأحد والأحزاب وحنين، ففي سورة الأنفال تفصيل لغزوة بدر، وفي سورة آل عمران تصوير لغزوة أحد، وفي سورة الأحزاب حديث عن غزوة الخندق، وفي سورة التوبة ذكر لحنين، فضلا عن آيات أخرى من سور أخر أشارت إلى هذه

الغـزوات وغيرهـا كالحـديبية والفتـح وتبـوك.وللقـرآن الكريـم منهجه الخاص في الحديث عن الأحداث التاريخية، فهو لا يورد التفاصيل بقدر ما يركز على الجوانب النفسية غير المتاحة في أي مصدر آخر.

وفـي القـرآن الكريـم أيضـا حديث عن السيرة الذاتية لرسول الله ﷺ في يتمه وأميته وفقره وبداية الوحي والجهر بالدعوة والصراع بينه وبين المشركين.

وأفاض القرآن الكريم في حديثه عن المنافقين وعن أخلاقهم وصفاتهم وعداوتهم لرسول الله والمؤمنين، وفصّل القول في اليهود وما أشربوه من الغدر والمكر والخيانة.

هذه الأحداث والقضايا المبثوثة في ثنايا القرآن الكريم قد تعرض لها ابن باديس - بلا ريب - بالشرح والتفهيم، واستنبط منها العبر والمواعظ والأحكام كما سار على منهجه في التفسير.

ومن خلال تتبعي لمواطن ذكر السيرة النبوية وما يتعلق بها في تفسيره المطبوع "مجالس التذكير" ألفيته يتحدث عن قضايا من صميم السيرة في مواضع كثيرة تتركز حول المحاور التالية :

1- أوضاع العالم قبل بعثة رسول الله ﷺ.

2- محمد ﷺ النور الساطع المبدد للظلام.

3- محمد رسول الله إلى الناس كافة (كل هذه المحاور في تفسير الآيتين 15-16 من سورة المائدة)

4- منهج الرسول ﷺ في الدعوة (في تفسير الآية 108 من سورة يوسف والآية 05 من سورة يس).

5- مواقف المشركين المعاندة وأساليبهم في محاربة الدعوة (في تفسير الآيات 04 إلى 06 من سورة الفرقان).

6- هديه ﷺ في العبادة (قيام الليل) (في تفسير الآية 79 من سورة الإسراء).

7- هديه ﷺ في التعلم (في تفسير الآية 114 من سورة طه).

8- هديه ﷺ في التداوي والاستشفاء (في تفسير الآية 82 من سورة الإسراء).

هذه نماذج لبعض الموضوعات من السيرة النبوية تعرض إليها ابن باديس في معرض تفسيره للقرآن الكريم، وهي في جملتها تدل على إلمامه بأحداثها، وهذا ما

يقرره حين يؤكد العلاقة بين فقه القرآن وفقه السيرة النبوية إذ لا يمكن فهم احدهما بمعزل عن الآخر فيقول: " إن فقه القرآن يتوقف على فقه حياة النبي ﷺ وسنته، وفقه حياته ﷺ يتوقف على فقه القرآن، وفقه الإسلام يتوقف على فقههما ".(12)ولا يقف ابن باديس عند حد الإلمام بالأحداث التاريخية، ولكنه يتعداها إلى ترجيح بعض القضايا المختلف فيها من حياة رسول الله ﷺ، فحين تكلم عن قيام الليل تساءل إن كان فرضا على رسول الله بين أمته، وبعد أن أورد أوجه الاختلاف بين العلماء انتهى إلى أن قيام الليل ليس فرضا لا في حق الرسول ولا أمته حتى قبل أن يتنزل التخفيف بل كان نافلة للنبي ومن معه وليس خاصا به، أما المقام المحمود فهو من اختصاص رسول الله ﷺ ، والخلاصة التي توصل إليها ابن باديس أن الترغيب في قيام الليل عام أما الوعد بالمقام المحمود فخاص برسول الله، أما عن حقيقة المقام المحمود الذي وعده رسول الله فيرجح ابن باديس أنه الشفاعة ويورد في ذلك أدلة كثيرة.(13)

وفي تفسيره للآية: 80 من سورة الإسراء يرجح ابن باديس أن المراد بمدخل الصدق هو المدينة المنورة ومخرج الصدق هو مكة، وقد رجح هذا المعنى بناء على ما تقدم من قوله تعالى:

﴿ **وإن كادوا لا يستفزونك من الأرض ليخرجوك منها** ﴾. (الإسراء :76)

وحين فسر ابن باديس الآية الخامسة من سورة يس وهي قوله تعالى:﴿ **لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون** ﴾ جاء بكلام نفيس في تدرج النبي ﷺ في الإنذار من القريب إلى البعيد وكيف بدأ بعشيرته الاقربين، ثم أمر بإنذار من حول مكة من العرب كما في سورة (الشورى الآية: 05) ﴿**لتنذر أم القرى ومن حولها**﴾، فكان ﷺ يعرض نفسه على القبائل العربية في المواسم ، ثم امره ربه بتعميم الإنذار كما في قوله تعالى :﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا**﴾ .(الأعراف :158)، فأرسل رسله إلى الأمم تحمل كتبه إلى ملوكها تدعوها إلى الإسلام .(14)

هذه نماذج من فقه ابن باديس للسيرة النبوية وقدرته على استنباط الأحكام منها أو الترجيح بين الآراء المختلف في بعض أحداثها.

وهكذا نستطيع أن نقرر أن ابن باديس حين تخلى عن تدريس السيرة النبوية كما بدأ أول مرة مع كتاب الشفا للقاضي عياض، قد اختار المنهج الأمثل لدراسة السيرة من خلال المصدر الأول القرآن الكريم.

السيرة النبوية من خلال شرح موطأ الإمام مالك :

أما المصدر الثاني الذي اعتمده ابن باديس لتعليم هدي الرسول ﷺ بعد القرآن الكريم فهو سنة النبي ﷺ نفسها، فالأحاديث النبوية تفصيل لما أجمل القرآن الكريم في العقائد والعبادات والآداب والأحكام، لذلك يصعب الفصل بين الحديث النبوي والسيرة النبوية إذ كلاهما يدخل ضمن المصدر الثاني للتشريع وهو السنة.

وتأتي كتب الحديث في الأهمية بعد القرآن الكريم كمصدر للسيرة النبوية، خاصة أن كثيرا من المصنفات تفرد قسما خاصا للمغازي والسير، وهي مادة محققة موثقة ممحصة، بما بذله المحدثون من جهود كبيرة في تحقيق الحديث النبوي .ومن هنا وجدنا ابن باديس يعتمد كتب الحديث في مقالاته التي كتبها حول السيرة النبوية والتي سنعرض لها لاحقا، فقد رجع إلى صحيحي البخاري ومسلم، ومسندي أحمد والبزار.

أما الموطأ الذي تولى ابن باديس شرحه كاملا في بضع عشرة سنة وختمه عام 1939م - أي بعد سنة من ختمه لتفسير القرآن الكريم- فهو أول كتاب دُوّن في الحديث النبوي الشريف واشتهر شهرة كبيرة حتى رغب هارون الرشيد أن يعلقه في الكعبة ويحمل الناس على العمل بما جاء به، لو لا أن الإمام مالك أجابه قائلا :"لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكل مصيب ".(15)

وقد أعجب العلماء بالموطأ فأقبلوا عليه دراسة وسماعا فسمعه من مالك:الأوزاعي والشافعي ومحمد بن الحسن وغيرهم وتولى كثير منهم شرحه، فشرحه الحافظ ابن عبد البر مرتين، كما شرحه الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي، والإمام جلال الدين السيوطي،

والزرقاني، والدهلوي وغيرهم. وهذا يدل على أن الله قد وضع للموطأ القبول في قلوب الناس، ويكفي شهادة فيه ما قال الإمام الشافعي :" ما في الأرض كتاب من العلم أكثر صوابا من موطأ مالك بن أنس". أما الإمام مالك بن أنس صاحب الموطأ فهو إمام دار الهجرة ومحدثها الأشهر، ويكفي تعريفا به وبمنزلته العلمية أن نسوق أقوال الأئمة والعلماء فيه (16).

قال الشافعي :" إذا ذكر العلماء فمالك النجم" .

وقال ابن معين :" مالك من حجج الله على خلقه".

وقال يحي بن سعيد القطان :" مالك أمير المؤمنين في الحديث".

وقال ابن سعد :" كان مالك ثقة مأمونا ثبتا ورعا فقيها عالما حجة"...

ويتميز كتاب الموطا عن بقية كتب السنة الأخرى أنه يجمع بين الحديث والفقه أو كما يقول الدكتور :همام عبد الرحيم سعيد :" إن كتاب الموطأ يمزج بين الحديث وفقه الحديث. ونرى الإمام مالكا يستنبط ويفرّع، وينقل القارىء إلى بيئة السنة والحديث.وهذه ميزة ينفرد بها الموطأ بين كتب السنة الأخرى...وبشكل موجز يمكننا القول :إن الموطأ هو كتاب البيئة الحديثية أكثر مما هو كتاب المعرفة الحديثية، أو هو كتاب الثقافة الحديثية؛ لأن الثقافة الحديثية لا تقتصر على المعارف بل تحتوي على عناصر نفسية وبيئية، وتتناول تفاعل الناس مع هذه المعارف عن طريق المواقف وأنماط السلوك ". (17)

إن ابن باديس يوم اختار موطأ الإمام مالك لشرحه كان على دراية تامة بتميزه عن بقية كتب السنة الأخرى، فزيادة عن كونه الكتاب الأول الذي دُوّن في الحديث، ومزجه بين الحديث وفقه الحديث فهو أيضا كتاب صاحب المذهب الفقهي الذي يتبعه اهل المغرب العربي، دون أن ننسى انه الكتاب الذي يستطيع ابن باديس أن يخضعه للمنهج التربوي والاصلاحي الذي التزم به، وبين أيدينا وصف لهذا المنهج للشيخ الجيلاني بن محمد الذي كتب يقول بمناسبة الاحتفال بختم الموطأ :" قضى (يقصد ابن باديس) في خدمته وهداية الأمة به درسا بضع عشرة سنة بعمل متواصل وجد جاد يحرر أسانيده ويعزز مسانده ويرفع مراسله ويستجلي أسراره ويكتسح به غيوم البدع وضلال

العقائد، فهذب العقول وطهر النفوس وحرك الهمم وقوى العزائم وأفعم الصدور بأنوار السنة المحمدية.فانزاحت دياجي الجهل وشبه الضلال وعوارض الغفلة وعوامل الجمود واستفاقت الأمة من سباتها العميق على ضوء السنة الوهاج فاندفعت تعمل لصالح الدارين ورائدها كتاب الله وسنة رسول الله وهدي السلف الصالح".(18)

والسؤال الذي يطرح نفسه، كيف استطاع ابن باديس توظيف السيرة النبوية من خلال كتاب الموطأ ؟ خاصة أنه الكتاب الوحيد بين كتب السنة الذي لم يُخصَص للسيرة النبوية كتابا أو مجرد باب فهو خلو من ذكر شيء يخص حياة رسول الله ﷺ أو غزواته أوشمائله أو غيرها من الموضوعات المتعلقة بالسيرة، إذا استثنينا الحديث الأخير رقم :(1843) في كتاب الجامع وهو الحديث الذي ختم به الإمام مالك موطأه وفيه ذكر لأسماء النبي ﷺ :" لي خمسة أسماء : أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب". (19)

الواقع أن التفريق بين الحديث النبوي والسيرة النبوية هو الذي يطرح مثل هذه الاشكالات، وإلا فإن السنة النبوية في مفهومها الشامل يتضمن ذلك جميعا، ولذلك فإن في الحديث النبوي أبوابا عن الفقه بأنواعه، كما أن الفقه قائم في أساسه على أفعال وأقوال وإقرارات الرسول ﷺ كما في قوله:" صلوا كما رأيتموني أصلي" (20)، وقوله:" يا أيها الناس خذوا مناسككم".(21)

ومثل هذا الفهم السليم كان لدى ابن باديس، فهو يعرف جيدا أنه بشرحه لأحاديث الموطأ يتناول قضايا من صميم السيرة النبوية، وهذا الذي نقوله ليس مجرد تخمين أو رجم بالغيب فمن فضل الله تعالى أن الدرس الأخير الذي خصه ابن باديس لحديث أسماء النبي ﷺ قد نقل إلينا كاملا، وقد ختمه بالتأكيد على هذه المسألة بقوله:" إن مالكا لم يذكر في موطئه كتابا خاصا بالسيرة النبوية كما فصل ذلك غيره ممن جاء بعده، و لكنه ذكر أسماءه الشريفة ﷺ فكفاه، وذكر أسمائه متضمن لسيرته ﷺ فكفاه في ذكر حياته ﷺ أن يذكر أسماءه. ولما كانت

سيرته من بدايتها إلى نهايتها هي المثال الصادق للشريعة كلها و السفر الجامع للدين الإسلامي كله ختم كتابه بهذا الحديث المشتمل على هذه الأسماء المتضمنة لها وهو كالتحصيل بعد التفصيل.

ونكتة أخرى وهو أن كل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علما وعملا فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية، والمثال الكامل لذلك كله هو حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في سيرته الطيبة، فهذا الحديث بعد ما تقدمه من الكتاب كله مثل الغاية من الوسيلة.

فسيرته - صلى الله عليه وآله وسلم - هي الجامعة لمحاسن الإسلام والغاية لكل كمال".(22)

هذا الذي قاله ابن باديس ينمّ عن فهم عميق ومنهج دقيق في تعامله مع موطأ الإمام مالك، ومن خلال هذا النص نستطيع أن نقول أن مالكا هو الوحيد من المحدثين الذي أعطى للسيرة النبوية أهمية خاصة فلم يعقد لها كتاباً أو باباً أو فصلا إنما ألف فيها كل الكتاب أو بتعبير الدكتور همام السابق :" إن الموطأ هوكتاب البيئة الحديثية أكثر مما هو كتاب المعرفة الحديثية "، وما البيئة التي يقصدها سوى المدينة النبوية حاضرة الإسلام وعاصمته، ولذلك كان من أصول مذهبه التي خالف بها الأصول المعتبرة لدى الأئمة: عمل أهل المدينة " فقد اعتبره حجة دالة على ما كان عليه النبي ﷺ من فعل أو حال، ولا يعتبر عمله حجة إلا إذا كانوا مجتمعين عليه متوارثين العمل به جيلا بعد جيل حتى عهد الرسول الكريم... وعمل أهل المدينة عنده أقوى من حديث الآحاد، فإذا تعارض خبر الواحد مع عمل أهل المدينة رجح الثاني". (23).

السيرة النبوية في بقية آثار ابن باديس:

بيّنا من خلال ما سلف أهم جهود ابن باديس في السيرة النبوية من خلال تفسيره للقرآن الكريم وشرحه للحديث النبوي الشريف، ولن تكتمل الصورة حتى نستعرض ما كتب عنها في غير المصدرين السابقين.

باطلاعي على آثار الإمام عبد الحميد بن باديس استوقفني خمسة عشر عنوانا لمقالات وخطب لها علاقة بالسيرة النبوية، اثنتا عشر منها : نشرت بمجلة الشهاب بين سنوات (1348-

1355هـ/1929-1936م) واثنتان منها نشرتا بمجلة البصائر سنة 1358هـ/1939م، أما المقالة الباقية فقد نشرت في رسالة تحت عنوان : "جواب سؤال عن سوء مقال" في عشرين صفحة وطبعتها المطبعة الجزائرية الاسلامية بقسنطينة بدون تاريخ، وإن كان ابن باديس يشير أنه حررها يومي (26و27) ذي الحجة سنة 1340هـ.

ويمكن تقسيم تلك المواضيع إلى محاور ثلاثة: **المحور الأول** : خمس مقالات أحداث ومواقف مختارة من السيرة النبوية.

المحور الثاني : سبع مقالات وخطب فيها إحياء لمناسبات، خمسة منها خاصة بالمولد النبوي الشريف وواحدة خاصة بليلة الإسراء والمعراج وأخرى درس من الهجرة النبوية.

المحور الثالث: ثلاث مقالات في الرد على مفتريات على السيرة وصاحبها.

ولسنا هنا لتتبع كل مقالة أو خطبة بالدراسة والتحليل، لأن ذلك أمرًا يطول، ولكن حسبنا أن نتناول كل محور على حدة، خاصة أن بين مقالات كل محور قاسم مشترك ووحدة موضوعية.

ففي المحور الأول الخاص ببعض المواقف والأحداث من سيرة رسول الله ﷺ أراد ابن باديس أن يبرز جانبين من جوانب عظمة النبي ﷺ ،أولهما : الحكم والسياسة، وذلك من خلال مقالين الأول تحت عنوان : " **الراعي** " وفيه إبراز للإعداد الكسبي في حياة الرسول ﷺ قبل البعثة؛ في يُتمه الذي علمه ألاّ يكون كَلاً على غيره، ثم كده وعمله حتى يأكل لقمته من عرق جبينه، ثم ضربه في الأرض تاجرا كعادة قومه، وكل هذه الاحوال والأعمال التي عاشها رسول الله ومارسها في صغره وشبابه كانت تهيؤه لمستقبل الأيام، وتلك هي الحكم البالغة التي يشير إليها ابن باديس حين يقول :" هذا هو المهيأ برعاية الغنم، لرعاية الامم، هذا هو المنشأ على الكد في العمل الصغير إعدادا له للنهوض بأعباء العمل الكبير ، هذا هو المربّى على العمل بالفلس، ليشب على خلق الاعتماد على النفس" . (24)

و مثل هذه الدلالات التي وصل إليها ابن باديس تنمّ عن فقه كبير للسيرة النبوية، وقدرة على استنباط المعاني والقيم من خلال أحداثها، وقليل من الكُتّاب

والباحثين في السيرة من يستطيع الإنتباه إلى مثل هذه الدلالات والمعاني.

أما المقال الثاني والذي عنوانه:" أعظم قائد يرجع إلى رأي جندي" فيحكي قصة مشورة الصحابي" الحباب بن المنذر" على رسول الله ﷺ في غزوة بدر حين أشار عليه بتبديل مكان النزول بعد أن عرف أنه ليس بوحي من الله، بل هو الرأي و الحرب و المكيدة، قائلا:" إن هذا ليس بالمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القُلب ثم نبني عليه حوضا نملأه ماءً ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون" فظهر لأعظم قائد صواب مشورة جندي من جنوده فأخذ بها قائلا :" لقد أشرت بالرأي ".

ولا يقف ابن باديس عند مجرد سرد الحادثة التاريخية لأنها متأتاة لكل واحد في مضانها، ولكنه يعمد إلى إبراز الحكمة من ورائها وهي:" أن يسن ﷺ لأمته حرية إبداء الرأي في الشؤون العامة من الكبير والصغير والرجوع إلى الصواب إذا ظهر من أي أحد كان "(25)، ليرسي في النهاية قاعدة حضارية بها تبنى سعادة الأمة وعظمتها فيقول :" هذان الأصلان :حرية الرأي من جميع أفراد الرعية، والرجوع إلى الصواب من رعاتها، عليها تُبنى سعادة الأمة وعظمتها، وبها تشعر الأمة بالوحدة بين الرعية ورعاتها، ومنها تستمد الأمة النظم اللازمة لها في حياتها" .(26)

هكذا يوصل ابن باديس مبادىء أساسية في السياسة والحكم، تتمثل في ضرورة التواصل بين الحاكم والمحكوم وقيام كل طرف بالدور المنوط به، فالرعية يجب أن يتوفر لها مجال من حرية إبداء الرأي للإشارة على الحاكم أو حتى تقويمه إذا رأته يحيد عن الجادة أو يخطىء في التصرف، والراعي بدوره عليه أن يتسع صدره ويستمع إلى رأي غيره ويرجع إلى الصواب إن كان مخطئا في تصرفه، فالرجوع إلى الحق خير من التمادي على الباطل.ولو أن أمة الإسلام - حاكمين ومحكومين- أخذت بهذين الأصلين العظيمين الذين قررهما رسولها المعصوم وبينهما عمليًا من خلال ذلك الموقف، لفُتحتْ عليها بركات من السماء والأرض، ولعادت لها مكانة السيادة والريادة وكانت بحق خير أمة أخرجت للناس.

هذا عن الجانب الأول، أما الجانب الثاني من عظمة النبي ﷺ الذي قصد ابن باديس إلى إبرازه فهو : منهجه ﷺ في الدعوة.

ويجسد ابن باديس هذا الجانب من خلال ثلاثة مواقف في حياة رسول الله ﷺ، الأول : مع الأعرابي الذي جاءه يستجديه في غلظة وجفوة، فأعطاه رسول الله ثم قال له :" أأحسنت إليك ؟" فرد عليه الأعرابي :" لا ولا أجملت" ، فغضب الصحابة وأرادوا معاقبته على سوء أدبه، فانتهرهم رسول الله ﷺ وزاد للأعرابي في العطاء ثم سأله :" أأحسنت إليك؟ " فقال :" نعم .فجزاك الله به من أهل وعشيرة خيراً ".

ثم أراد رسول الله ﷺ أن يعلم صحابته وجميع المسلمين من بعدهم كيف يكون رد الشارد وجذب النفور وتأليف الجافي، فضرب لهم هذا المثل قائلا :" مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا فناداهم صاحبها : خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم.فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها " ثم قال :" وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار ".

هكذا كان رسول الله ﷺ يتألف قلوب الجفاة من الأعراب، يقابل بالإساءة إحساناً ، ويزيد في الإحسان حتى يستخرج الاعتراف بالجميل من منكره، وهو بذلك يعلم الدعاة إلى الله تعالى ضرورة الصبر على الأذى والإحسان إلى من أساء إليهم، لأن ذلك هو السبيل الوحيد إلى استمالة قلوبهم.

وابن باديس إذ يورد هذا الموقف التربوي الدعوي لرسول الله ﷺ إنما يرسم المنهج الأمثل والسبيل الأقوم في الدعوة إلى الله تعالى، لأن رسول الله هو سيد الدعاة وأرحم الناس بالناس فهو من قال فيه ربه تعالى :﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ (التوبة :129).

فحري بكل من يتصدى لتربية الناس أن يتخذ من رسول الله أسوة حسنة له .

ولا ينسى ابن باديس في الأخير أن يشير إلى العبرة

بقوله :"وهكذا تكون رعاية الأفراد والأمم باللين و الإحسان والإنقاذ من مصارع السوء والحمل بالرفق والعلم على السير في أحسن السبل".(27)

الموقف الثاني:مع "غورث بن الحرث" الذي أراد قتل رسول الله حين وجده نائما تحت شجرة فصاح بالنبي ﷺ :" أتخافني؟" فقال له النبي ﷺ :" لا" قال:"ومن يمنعك مني؟" فقال:" الله "..فانخلع قلب الفاتك و اضطربت يده وسقط السيف منها فتناوله النبي ﷺ وقال لغورث:" من يمنعك مني؟" فقال:" كن خير آخذ" فعفا عنه رسول الله ﷺ فرجع إلى قومه يقول لهم:" جئتكم من عند خير الناس". ويقف ابن باديس عند هذه القصة العجيبة الصحيحة التي رواها الشيخان في صحيحيهما والإمام أحمد في مسنده والقاضي عياض في الشفا ويتملاها بعمق و يستنبط منها معاني إيمانية جليلة (28):

أولها : الثقة في الله تعالى و قد تجلت في أجلى مظاهرها بما نطق به الرسول الأعظم وهو أعزل من سلاحه إلا سلاح الإيمان.

ثانيها: اندحار قوة السيف أمام قوة الإيمان.

ثالثها: ما تفعله كلمة "الله" حين يصدع بها المؤمن المخلص، إذ يرتجف لها قلب كل متكبر جبار وترتعد لها فرائس كل فاتك غدار.

رابعها: العفو عند المقدرة والسماحة بعد الغلب، وذاك خلق رسول الله ﷺ ، فما دعي إلى خير إلا أجاب، ولا وقع بين أمرين إلا اختار أفضلهما، وما انتقم لنفسه قط.

خامسها: أثر العفو والتجاوز في تأليف القلوب، فقولة غورث:" جئتكم من عند خير الناس "لها من الأثر في القلوب ما لا تفعله الجيوش.

تلك هي المعاني التي أخذها ابن باديس من هذا الموقف لصاحب القلب الرحيم والخلق العظيم ﷺ ، ليتخذها الدعاة إلى الله تعالى نبراسا لهم يهتدون به في طريق الدعوة.

أما الموقف الثالث والأخير: فلا يقل طرافة عن سابقه، فهو يحكي قصة "ضماد" أحد أطباء العرب الذي قدم مكة فبلغه نبأ الدعوة الجديدة وما يقوله سفهاء قريش عن رسول الله ﷺ وما يرمونه به من جنون فأراد أن يرقيه ! وحين

قابله عرض عليه الفكرة، فما زاد رسول الله ﷺ على أن قال :" إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد:" فاستوقفه ضماد وقال له :" أعد عليّ كلماتك هؤلاء" ، فأعادها عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال ضماد :" لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغنْ قاعوس البحر (أي عمقه) ثم قال :"هات يدك أبايعك على الإسلام"، فبايعه، فقال له رسول الله ﷺ : "وعلى قومك ؟" فقال :" وعلى قومي ".(القصة في صحيح مسلم).

وبعد أن يورد ابن باديس القصة يخلص إلى العبرة(29)، ولقد أبدع رحمه الله حين التفت إلى أثر العوامل النفسية في الداعي والمدعو على حد سواء، فالمدعَو إذا خلا قلبه من البغض والحقد على من يدعوه عرف الحق بسهولة كما كان شأن ضمّاد الذي نظر إلى رسول الله نظرة الطبيب إلى المريض، فإذا به يدرك أنه هو المريض ورسول الله هو الطبيب، فأين هذا الموقف من المواقف المتعنتة لزعماء قريش وأئمة الكفر فيها ؟ فهؤلاء ما صدهم عن الحق إلا حقدهم وحسدهم ولو خلصت قلوبهم من الإحن لعرفوه واتبعوه.والداعي إلى الحق عليه أن لا يظهر بمظهر العدو أو المبغض لمن يدعوه، فكم من داعية يصد عن سبيل الله بسبب فساد قلبه، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً.

وبعد هذه اللفتة الطيبة يعود ابن باديس فيخاطب الدعاة إلى الحق ليعلمهم الرقية الشافية (رقية الله) التي تداوي النفوس من وساوس الأهواء والقلوب من هواجس الضلال، تلك الرقية التي رقى بها رسول الله ﷺ ضمّاداً ، فيقول:" فعلى الدعاة إلى الحق أن تكون دعوتهم بكلام الله و مثل هذه الكلمات من حديث رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم– فإن في ذلك الاتباع و الانتفاع، وحصول الهداية إن شاء الله".(30)

وفي المحور الثاني: الخاص بإحياء مناسبات تتصل بصاحب السيرة والتي تمثل فيها مناسبات المولد النبوي الشريف المحطات الكبرى التي يقف عندها ابن

باديس في كل مرة ليخاطب فيها الأمة ويعرفها بجوانب من عظمة رسول الله ﷺ.

وحديث ابن باديس عن المولد النبوي له طابع خاص، فإذا كان الخطباء والمدرسون وحتى الكتاب في مثل هذه المناسبة يتبارون في الحديث الطويل العريض عن ليلة ميلاده ﷺ وما اكتنفها من عجائب وغرائب، وما كان من انقلابات كونية وغير كونية-مما لم يحصل منه شيء البتة-، فإنه لا يلتفت إلى مثل هذه الإسرائيليات والموضوعات كما أنه لا يجتر كلاما مكرورا مملولا عن المولد في حد ذاته، فذلك ما يحفظه العامة فضلا عن الخاصة، بل يتكلم عن معاني جديدة وأخلاق نبيلة، حتى إن القارئ يحس أحيانا بانبتات الصلة بين الموضوع والمناسبة، ومن هنا فإن ابن باديس ليس رجل مناسبات يعرف الإسلام في الأعياد والمواسم بل هو يعيش الإسلام في كل وقت، وقد عرفنا آنفا كيف تعهد أن يعيش للإسلام و الجزائر، وأن يقضي بياضه على العربية والإسلام كما قضى سوادِه عليهما، ولذلك فهو حين يختار المناسبات الدينية إنما يختارها بسبب ما يحصل للنفوس فيها من صفاء، وما ينشأ فيها من استعداد وقابلية لتشرُّب الحق والإقبال عليه.

فالمولد النبوي عند ابن باديس فرصة سانحة للحديث عن أخلاق رسول الله ﷺ، وعن معنى التجدد في كل مولد، وعن دعوة الناس كافة إلى اتباع الهدى الذي جاء به محمد ﷺ، هذه هي المعاني التي يؤكد عليها ابن باديس.

ففي حديثه عن أخلاقه ﷺ (31) يركز على خلقين يمثلان ركنين أساسيين في حياته وشريعته وهما: الرحمة والقوة.

وقد يبدو أنه يجمع بين خلقين متناقضين، ولكنهما في الحقيقة متكاملين في شخص رسول الله ﷺ. فرحمته ﷺ فوق كونها عطاءً ربانياً فهي أيضا راجعة إلى يُتمه الذي أورثه رقة في قلبه، وقوته إنما مردها إلى نشأته في بيت عظيم، فقد كان يشهد مجالس جده عبد المطلب(شيبة الحمد) فأورثه ذلك عزة النفس.

وابن باديس إذ يرجح الإعدادات الكسبية على العطاءات اللدنية، إنما يريد أن يؤكد إمكانية الاقتداء برسول الله ﷺ في

رحمته وقوته، ولا عجب فإن الله عز وجل حين امتدح رسوله بهاتين الخصلتين ذكر معه أصحابه فقال عز من قائل: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ (الفتح : 29).

ولابن باديس قدرة كبيرة على التحليل و التعليل فرغم أنه ارتجل خطابه هذا ومع ذلك فقد أتى فيه بقلائد وفرائد وفوائد لا يهتدي إليها إلا أولوا الألباب.

فقد تكلم عن مظاهر رحمته ﷺ وقوته، فجاء بأمثلة حية من سيرته ونصوص من القرآن تعضد ذلك. وانتهى بعد ذلك إلى أن الرحمة والقوة تصبغان أخلاقه، وأعطى أمثلة لذلك بصدقه وأمانته وعدالته ﷺ .

أما عن معنى التجدد في كل مولد (32)، فقد بدأه ببيان أن الأنبياء والمرسلين هم أساس التجديد في تاريخ البشرية، وأن محمد بن عبد الله هو المجدد العام بعد الفساد العام، وبميلاده ولد العالم من جديد، وبعد ذكر هذه المعاني الحضارية التي ارتبطت بميلاده ﷺ لاعاد إلى الحديث عن معنى آخر عن معاني التجدد، وهو تجديد النفوس فيقول:" فلنجعل يوم ولادته من كل عام نعزم فيه على تجديدنا تجديدا روحيا وعقليا وأخلاقيا وعمليا وتاريخيا، تجديدا إسلاميا محمديا في جميع ذلك...علينا أن نتفقد عقائدنا وأخلاقنا وأعمالنا ونعزم فيما اندثر منها على التجديد" (33). وتأمل كيف أن ابن باديس يستعمل ضمير المتكلمين بما يفيد أنه يقصد نفسه أيضا فيدعوها إلى التجدد ومن هنا فهو لا يزكي نفسه أو ينصح غيره وينسى نفسه، بل إنه زيادة على عزمه على تجديد نفسه يضطلع بمهمة أخرى باعتباره مصلحا ومربيا فيقول : " أما كاتب هذه السطور (يقصد نفسه) فقد عزم على تجديد ما فني من قلوب المسلمين من عقيدة (إنهم بالإسلام من أفضل الأمم) ليدعوهم بذلك إلى التمسك بأخلاق الإسلام وآداب الإسلام وعدل الإسلام وإحسان الإسلام. إذ في ذلك سعادتهم وسعادة البشرية كلها معهم والله المستعان" (34).

وفي مقال "إلى محمد أيتها الإنسانية" يدعو ابن باديس – بمناسبة المولد النبوي– الناس كافة إلى اتباع الهدي المحمدي، لأن فيه صلاح الدنيا والآخرة .وقد قسم دعوته تلك فخاطب المسلمين بداية

فدعاهم إلى تمثل سيرة نبيهم وإحياء سنته وفي ذلك نجاتهم وسعادتهم إلى يوم الدين، ثم خاطب العرب بعد ذلك فذكر بفضل رسول الله عليهم وكيف جمع شتاتهم ووحد كلمتهم، وهو من خلدهم وسوّدهم وأعطاهم المشعل الذي انطلقوا به يهدون الناس، وأخيرا خاطب البشرية كافة فبيّن لها انها ولدت من جديد بميلاد محمد بن عبد الله، فهو من أضاء لها طريق العلم والعمل والحرية والسلام، وهو من سوى بين بني آدم في الكرامة الإنسانية وأسقط اعتبار الأجناس والألوان في الأفضلية وأعلن ألا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

فهذا نداء حار يوجهه ابن باديس إلى الناس كافة يدعوهم فيه إلى اتباع هدي محمد ﷺ ومن هنا يتأكد لدينا إيمانه بعالمية الإسلام وأنه هو المخرج الوحيد مما تقاسيه البشرية من عناء.

أما لماذا خاطب المسلمين أولاً ثم العرب ثانيا وأخيرا البشرية؟ فالسبب واضح في أنه يتمثل منهج القرآن الكريم في الدعوة وذلك وفق التدرج كما أشرنا إليه -فيما سبق- حين قلنا إن القرآن الكريم دعا رسول الله ﷺ إلى دعوة عشيرته الأقربين أولاً بقوله تعالى :﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ (الشعراء: 214)، ثم دعاه إلى إنذار العرب بقوله :﴿**لتنذر أم القرى ومن حولها**﴾ (الشورى: 5) وأخيراً جاءت الدعوة العامة بنزول قوله تعالى :﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾ (الأنعام :**158**).

ومن المناسبات التي تتصل بسيرة رسول الله حادثة الإسراء والمعراج، وقد كتب ابن باديس عنها مقالاً واحداً ليس له أدنى صلة بالحادثة التاريخية المعروفة، إنما جعل المناسبة فرصة للتذكير بمآسي المسلمين في القدس بسبب الاستعمار الإنجليزي الغاشم والمذهب الصهيوني الطامع، ويصف تلك المآسي بقوله:" هو (المسجد الأقصى) اليوم بين مسايل الدماء والأشلاء، وانقاض النسف والتخريب بالنار والحديد...وإن إخوانكم الذين يحفظون ذلك الحرم المقدس ويعمرون أرضه ويردون عنه العدوان قد رُمّلت الآلاف من نسائهم ويُتّم مثلها من أبنائهم، وضاع عجزتهم ومرضاهم،

فأكلتهم الفاقة، وأنهكتهم الأوصاب، وأحاط بهم البلاء من كل جانب".(35)

ثم يدعو الشعب الجزائري إلى مساندة إخوانه في القدس ومدهم يد العون فيقول : "إننا نرى غيرنا يبذل الجهد في إغاثة المنكونين من إخواننا بتلك الأرض المقدسة...فلنبادر للقيام بالواجب علينا نحو إخواننا في كل مناسبة تعرض لنا، وإن من أعظم تلك المناسبات وأفضلها ليلة المعراج النبوي الكريم" .(36)

قد يبدو للوهلة الأولى أن المقال ليس له صلة بالسيرة النبوية ولكنه في تقديرنا لصيق الصلة بها خاصة أنا قد عرفنا أن منهج ابن باديس في التعامل مع السيرة يختلف مع المنهج التقليدي الذي يعتمد السرد التاريخي للأحداث، فهو هنا يعطي للسيرة بعدها الاجتماعي فقد أراد أن يُرغب في الانفاق ويشعر الجزائريين بمأساة إخوانهم الفلسطنيين فاختار ليلة الإسراء والمعراج كمناسبة لذلك، وهذا نوع من التوظيف للسيرة النبوية له فوائد جمة على مستوى الفرد والمجتمع.

أما المناسبة الأخيرة التي وظفها ابن باديس فكانت الهجرة النبوية، وقد أحياها بإلقاء خطاب على الطلبة الجزائريين بتونس سنة 1936، وقد وُفِق في هذا الربط حين خاطب مهاجرين جزائريين عن معاني الهجرة بمناسبة الهجرة النبوية، فأعطاهم مثلاً سامياً من هجرة رسول الله ﷺ وهجرة أصحابه حين تركوا مكة الحبيبة إلى قلوبهم وانتقلوا إلى المدينة، وكما أن رسول الله ﷺ وصحابته من المهاجرين ظلوا متعلقين بمكة يشدهم إليها الحنين ومع ذلك صبروا حتى أذن الله عز وجل بفتحها في العام الثامن للهجرة، فكذلك أراد ابن باديس للطلبة الجزائريين، قال يخاطبهم :" أنتم -يا أبنائي الجزائريين- مهاجرون، هاجرتم وطنكم، لا لتستريحوا منه وتتركوه فتكونوا هاجرتم بأنفسكم لأنفسكم، بل لتتعبوا أنفسكم ثم تعودوا إليه فتنقذوه".(37)

وهكذا تظل السيرة النبوية بأحداثها هي المثل السامي الذي يحرص ابن باديس أن يعلمه للناس في شتى المواقف.

بهذا تتضح لنا الصورة أكثر لجهود ابن باديس في السيرة النبوية ومنهجه في التعامل معها، ولكن هذه الصورة ستزداد جلاء وكمالاً حين نتعرض إلى المحور

الثالث الخاص بالرد على مفتريات المغرضين على السيرة النبوية وصاحبها ﷺ.

دفاع ابن باديس عن السيرة وصاحبها:

إن علاقة ابن باديس برسول الله ﷺ ليست علاقة مقالات يدبجها أو خطب يشنف بها الآذان أو عاطفة باردة ليس لها رصيد في الواقع، بل هي علاقة الجندي بقائده والتلميذ بأستاذه، فحبه لرسول الله ﷺ لا شك فيه أليس هو القائل؟!" إن الشيء يحبّ لحسنه أو لإحسانه وصاحب هذه الذكرى (يقصد رسول الله ﷺ) قد جمع - على أكمل وجه- بينهما. فله من الحسن ما كان به أكمل الناس...وله من الإحسان ما أنقذ به البشرية وكان رحمة خاصة وعامة...

فمن الحق والواجب أن يكون هذا النبي الكريم أحب إلينا من أنفسنا وأموالنا ومن الناس أجمعين ولو لم يقل لنا في حديثه الشريف:" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين".(38)

ورسول الله ﷺ جدير بذلك الحب والتقدير، فقد "خلق الله محمدا ﷺ أكمل الناس وجعله قدوتهم وفرض عليهم اتباعه والإقتداء به، فلا نجاة لهم من المهالك والمعاطب ولا وصول لهم إلى الشهادة في دنياهم وأخراهم ومغفرة خالقهم ورضوانه إلا باقتفاء آثاره والسير على سبيله" .(39)

ويعزي ابن باديس البلاء والمصائب التي لحقت المسلمين إلى مخالفتهم للسنة النبوية والهدى المحمدي فيقول :" مخالفة السنة النبوية والهدي المحمدي وما كان عليه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في تنفيذ شرع الله وتطبيق أحكامه وتمثيل الإسلام تمثيلا عمليا.تلك المخالفة هي سبب كل بلاء لحق المسلمين حتى اليوم. (40)

وبسبب الكمالات التي أوتيها رسول الله ﷺ ، وتعلق المسلمين به ظلت سهام الأعداء قديما وحديثا موجهة إليه، يريدون الانتقاص من قدره، وصرف المسلمين عن الاقتداء بسنته، ولكن الله عز وجل كان يهيء في كل مرة رجالا من أمة محمد ﷺ هم ورثته من العلماء المخلصين يكافحون عنه ويفضحون مكائد الأعداء في النيل من سنته.

وابن باديس واحد من الذين شرفوا بالدفاع عن رسول الله ﷺ ورد مفتريات المغرضين عنه، وبين أيدينا ثلاثة مواقف أعلن فيها ابن باديس الحرب على قوم اجترأوا على المقام السامي للحضرة النبوية.

ففي مقال تحت عنوان " رسول الله يشتم بين أيدينا ويهان" كتب ابن باديس يرد على أحد المستشرقين الموتورين يدعى " روبير راندو "، فقد كتب هذا الأخير مقالا في جريدة " الإيكودالجي" اليومية التي كانت تصدر بالجزائر سنة 1935 ، وفيه تجرأ على مقام الرسول الأعظم ﷺ بعبارات بذيئة نقل منها ابن باديس قوله :

" هو رجل مظلم النواحي فوق الرجال، به ظاهر من الرحمة والبساطة، إنما له من التحيل والخداع ومن الخيانة والنفاق ما لا يدرك له غور".(41)

ويصف الفتوحات الإسلامية بقوله:" إنها كانت كالأوبئة الفتاكة، ماحقة مثل الطوفان ولم تكن إلا سلسلة من الفتك والظلم والإرهاب وإزهاق النفوس بدعوى جلب الناس لدين الله "(42).

لقد هزت هذه الكلمات النابية كيان ابن باديس فانتفض كالأسد الهصور يدافع عن عرينه، فإذا به يكيل " راندو " اللعين الصاع صاعين، فهو من الحشرات السامة التي لا علم لها ولا فضل ولا شرف في النفس وهو صاحب نفس خبيثة سافلة تسير مع الأهواء فتعمى عن الحقائق، وتنكر المحسوس وتصادم العلم والتاريخ، وهو راسب في حمأة السقوط و الدنس، عباراته البذيئة القذرة تدل على نجاسة الإناء الخبيث الذي تدفقت منه، فهو ملعون قبحه الله من ماكر أشر.

هكذا خاطب ابن باديس العف اللسان الكريم المتسامح الليّن الجانب " راندو" بهذه الكلمات النارية وبما يليق بالمقام السّافل والمستوى الهابط الذي نزل إليه حين تجرأ على مقام الرسول الأعظم، إن ابن باديس ومعه كل جزائري يقبل كل لغوب ويصبر على كل مكروه، ولكننا - كما يقول ابن باديس- " إن تحملنا عيشة الذل بصبر، وتحملنا الفتنة في الدين بصبر، فإننا لا نتحمل ولن نتحمل، ولو رأينا أمامنا الموت الزؤام، والبلاء الأعظم، أن تمتد يد الإهانة والسوء إلى الشخصية المقدسة التي هي أعز

على كل مسلم، منذ انبثق فجر الإسلام إلى قيام الساعة، شخصية محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم".(43)

هذا هو شأن المسلم الغيور على دينه المحب لنبيه لا يرضى له أن يشاك بشوكة فضلا عن أن يشتم أو يهان، ومع أن ابن باديس كان بإمكانه أن يعلنها حربا شعواء ضد هذا الزنيم الحقير المسمى " راندو" فتكون فتنة وفسادكبير. ولكن آداب دينه جعلته يترفع عن هذا المنحط السافل يقول ابن باديس في ختام مقاله:" إن مثل هذه الكلمات السافلة توشك أن تحدث فتنة نحن في غنى عنها، و شر الفتن ما كان مصدره الغضب للدين. و إننا لتمنعنا آدابنا الإسلامية، وتعاليمنا الراقية من أن ننحط لمثل هذا الميدان فنشتم دين الذي يشتم ديننا، ونحقر إعتقاد الذي يحقر اعتقادنا ".(44)

ولو أن سوء الأدب والتطاول على مقام الرسول الأعظم اقتصر على أمثال هذا المستشرق الذين أعمى الحقد بصره وبصيرته لهان الخطب، ولكن الطامة العظمى والداهية الدهياء أن تصدر مثل تلك الحماقات والجهالات من أقوام ينتسبون لهذا الدين بل ويدّعون أنهم من العارفين الراسخين.

وليس بين المسلمين من يجرأ أن ينال من مقام الرسول الأعظم ﷺ إلا كل ممسوخ في عقيدته مشكوك في دينه، قد نزع ربقة الإسلام من عنقه، كبعض المتصوفة أو الطرقيين الذين لا علم لهم ولا ورع، وبين أيدينا أنموذج لأولئك الحمقى الجاهلين أساء الأدب مع رسول الله ﷺ.

فقد سئل ابن باديس عن رجل يزعم أنه قطب زمانه وأنه العارف المسلك خاطب رسول الله ﷺ يقول :(45)

إن مِتّ بالشوق منكد
ما عذر ينجيك
إن تَبق في هُجري زائد
للمولى ندعيك
من هو بالملك موحد
ينظر في أمرك
عبس بالقول تَساعد
ما نرجوه فيك

فكتب ابن باديس يرد عليه في بحث عنوانه :" رسالة جواب سؤال عن سوء مقال"(46) يقع في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

افتتحه ابن باديس بالتأكيد على إجماع علماء الملة من جميع الفرق على وجوب الأدب مع النبي ﷺ حياً وميتاً، واستدل على

ذلك بما كانت عليه سيرة السلف الصالح من الأدب مع رسول الله، ثم انتقل إلى الحديث عن محافظة شيوخ الزهد والعلم من أئمة التصوف العارفين على الأدب مع رسول الله وتحريضهم عليه والوصاية به وأورد في ذلك أقوالا لأولئك الشيوخ من أئمة التصوف من الرسالة القشيرية.

وقد جاء ذلك المغرور الجاهل بمنكر من القول وزورا حين خاطب رسول الله ﷺ بمثل ذلك الكلام، فهو يطالب رسول الله ﷺ بالإعتذار إليه ثم يخوفه بالله تعالى ويشتكيه إليه، وأخيرا يُعرّض به بما خاطبه الله تعالى في سورة عبس في شأن ابن أم مكتوم. تلك هي المعاني التي اشتملت عليها الأبيات الأربعة التي ذكرناها آنفا، وهي تهجمات قبيحة وهي أسوء من رفع الصوت الذي نهى الله تعالى عنه وجعله سببا في إحباط الأعمال كما في سورة الحجرات، ولذلك فهي أحق بالمنع والتحريم.

وقد انتهى ابن باديس بعد تفنيد كل تلك الجهالات والحماقات إلى أن هذا المقال لا يصدر من العارفين بل هو صادر عن واحد من عامة العامة، فهو خطاب غليظ جافي لا يقوله مؤمن عامي باق على فطرة الإيمان، فضلا عن أهل الخصوصية والعرفان، فهو يهجّم على الحضرة النبوية بمثل ذلك الخطاب الذي لا نظير له في كلام صغار المنتسبين، وعامة المداحين الجاهلين فضلا عن كلام العارفين.

ونحب أن نؤكد أن هذا البحث الذي كتبه ابن باديس يقيم فيه الحجة على ذلك الجاهل المغرور ويلقمه الحجر، من الدرر النادرة التي لا يمكننا أن نجدها حتى لدى كبار العلماء، فقد وقق فيها وأتى فيها بعقائد نقية وأدلة جليّة وكلمات نبيلة، أعجب بها جمع من كبار العلماء (47)، من تونس والجزائر والمغرب فكتبوا تقاريظ حولها.

والمقال الثالث والأخير الذي نفى فيه ابن باديس تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين عن سيرة سيد المرسلين كان خاصاً بطه حسين ودسائسه على السيرة النبوية الشريفة.(48)

فقد كتب "طه حسين" كتابا عن السيرة أسماه "على هامش السيرة" فملأه بالخرافات الباطلة والأساطير الخيالية حتى ليخيل للقارئ أن سيرة محمد ﷺ ماهي إلا أسطورة من الأساطير، وفي

هذا من الدسّ والبهت ما فيه، ويبدو الكتاب من عنوانه توجها جديدا لطه حسين ومحاولة منه لمحو تلك التهم التي ألصقت به بعد تلك المعركة المحتدمة حول كتابه" في الشعر الجاهلي" الذي أصدره عام 1926، لكن القارىء سرعان ما يصطدم ومنذ الأسطر الأولى من المقدمة بقول المؤلف: " هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين لأني لم أرد بها إلى العلم ولم أقصد بها إلى التاريخ" (49).

وواضح أن طه حسين يريد التفلت من المنهج العلمي التاريخي في كتابة السيرة النبوية، ليطلق العنان بعد ذلك لخياله فيوسع على نفسه في القصص ورواية الأخبار ولو بالاختراع وهذا ما يصرح به في قوله :" وأحب أن يعلم الناس أيضا أني وسعت على نفسي في القصص، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأسا " (50).

وقد أراد طه حسين للسيرة النبوية أن تكون أداة تسلية وترفيه عن النفس، وليست منهجا للقدوة والأسوة كما أرادها الله عز وجل، فيقول :" فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها، ما يحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها، ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه عن النفس حين تشق عليهم الحياة " (51).

والحق أن طه حسين حين يلجأ إلى مثل هذه الأساليب فيبدي إشفاقه على الناس ويرثي لأحوالهم وما يلقون من جهد الحياة وعنائها، ثم يريد أن يسليهم ويرفه عن أنفسهم لا يجد إلا السيرة النبوية لتقوم بهذا الدور -وكأن الناس لا يرتاحون ولا يتسلون إلا بالأخبار الكاذبة والأساطير المخترعة- أقول حين يفعل ذلك إنما يريد أن يمرر أفكارا خطيرة ويُلبس على الناس أمر دينهم، وإلا فالحقيقة التي أسرها طه حسين ولم يبدها، أنه أراد أن يشكك في السيرة النبوية ويجعلها مجرد أساطير وخرافات شأنها شأن الأدب الإغريقي أو اللاتيني، وإلا فما معنى أن يكتب طه حسين -كما هو في الظاهر- عن السيرة، ثم يطلق العنان لقلمه فيمجد "الإلياذة لهوميروس" و"انفيتريون رقم 38 لجيرودو"، دون أن ينسى الشاعر اللاتيني "بلوت" والشاعر الفرنسي "موليير"؟ وأي علاقة بين السيرة النبوية وكتابات هؤلاء إلا أن

تكون العبودية الفكرية للغرب؟! اسمع إليه مثلا وهو يتكلم عن الإلياذة حديث الولهان فيقول : "وليس خلود الإلياذة يأتيها من أنها تُقرأ فتحدث اللذة وتثير الإعجاب في كل وقت وفي كل قطر؛ بل هو يأتيها من هذا، ومن أنها قد ألهمت وما زالت تلهم الكتاب والشعراء، وتوحي إليهم أروع ما أنشأ الناس من آيات البيان...".(52)

وهذا الذي نقوله عن طه حسين وكتابه "على هامش السيرة" ليس افتراء عليه، بل هو ما اعترف به بعد سنوات من صدور الكتاب أمام المستشرقين في أول مؤتمر للحوار بين المسيحية والإسلام، وصدر في كتاب "الإسلام والغرب" سنة 1946 بباريس، ومما جاء في اعترافاته ما يلي:

"ويتحتم أن نعترف بأن كتابين فرنسيين كانا بمثابة الشرارتين اللتين أشعلتا موقدين مختلفين، أحد الكتابين لجيل لومتير وعنوانه :(على هامش الكتب القديمة) والثاني :(حياة محمد) لإميل درمنجم.

أما كتاب جيل لومتير فإني بعد أن شغفت به كثيرا .وضعت في نفسي الأسئلة الآتية:

هل يمكن إعادة مآثر الفترة البطولية في تاريخ الإسلام في أسلوب جديد، أم أنه يتعذر ذلك، وهل تصلح اللغة العربية لاحياء هذه المآثر؟

لقد حاولت أن أقص (بعض الأساطير) المتصلة بالفترة التي سبقت النبي ﷺ ثم قصصت مولده وطفولته ونشرت هذه السلسلة تحت عنوان مقتبس من جيل مولتير وهو (على هامش السيرة).

وهذا الكتاب من عمل المخيلة..اعتمدت فيه على جوهر بعض الأساطير ثم أعطيت نفسي حرية كبيرة في أن أشرح الأحداث وأخترع الإطار الذي يتحدث عن قرب الى العقول الحديثة، مع الاحتفاظ بالطابع القديم".(53)

ونستطيع أن نلمس من خلال المقال أن ابن باديس عارف بمنهج "طه حسين" في تعامله مع الثقافة الإسلامية جملة، و مطلع على آرائه ومواقفه الجريئة والمعادية للإسلام، لذلك لا يتردد في التشكيك في صدق نواياه فيقول :" فالدكتور طه حسين الذي كان يقول على الإسلام ما شاء ولا يبالي بالمسلمين، أصبح اليوم – بعدما أخرج من الجامعة – يحسب للمسلمين حساباً، فلايكتب شيئا إلا

و هو يقول و (يكرر) أنه مسلم، و أنه يعظم الإسلام، و لكن ما انطوى عليه صدره يأبى عليه إلا الظهور كما بدا جليا في كتابه هذا الأخير".(54)

ولم يكلف ابن باديس نفسه مؤنة الرد على "طه حسين" أو نقده فيما كتب إنما إكتفى بنقل ما كتبه الدكتور "حسين هيكل" - أخص أصدقاء الدكتور طه حسين - و الذي أنكر على صاحبه ما جاء في كتاب " على هامش السيرة "، و إذا كان الذي تولى نقد طه حسين هو صديقه وصفيه فذلك دليل على أن ما جاء في الكتاب أمر لا يمكن السكوت عنه، وقد اعتبر ابن باديس ذلك من باب دفاع الله عن الإسلام.

وبعد فهذه محاولة لتتبع جهود ابن باديس في السيرة النبوية ومنهجه في التعامل معها، استقرأناها من خلال آثاره وتراثه الفكري، وقد عملنا -جهد المستطاع- على الإلمام بكامل جهوده في هذا المجال بغية التعريف بجانب من جوانب عبقرية الإمام عبد الحميد بن باديس التي لم تنل حقها في الدراسة في تقديرنا، فإن كنا قد وفقنا في شيء من ذلك فذلك من فضل الله ومنّته، وإن قصرنا فذلك جهدنا ومبلغ علمنا وفوق كل ذي علم عليم.

والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

(1) أنظر تاريخ الجزائر الثقافي د.أبو القاسم سعد الله.المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ط2 - 1985 -2/ 337 - 339

(2) تصدير محمد البشير الإبراهيمي لمجالس التذكير لابن باديس مطبوعات وزارة الشؤون الدينية -دار البعث قسنطينة الجزئر 1402هـ/ 1982م ص 27.

(3) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس مطبوعات وزارة الشؤون الدينية دار البعث قسنطينة الجزائر 1406هـ/ 1985م - 109/4.

(4) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ط 1415هـ/1994م 6/366-367.

(5) مجالس التذكير من حديث البشير النذير للشيخ عبد الحميد بن باديس مطبوعات وزارة الشؤون الدينية دار البعث قسنطينة الجزائر 1403هـ/1983م ص 309.

(6) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس 69/4.

(7) سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين الذهبي، حققه و خرج أحاديثه و علق عليه: شعيب الأرناؤوط و محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة بيروت ط3 - 1406هـ/1986م - 216/20.

(8) كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، العلامة حاجي خليفة، دار الكتب العلمية بيروت د.ط- 1053/2.
(9) المصدر نفسه - 1053/2-1055.(10) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس - 69/3.
(11) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ص: 476-477.(12) المرجع نفسه - ص: 54 .
(13) أنظر في تفصيل هذه المسائل المرجع نفسه- ص: 178 -180.
(14) أنظر المرجع نفسه -ص : 372.
(15) السنة و مكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي بيروت ط.3 - 1402هـ/1982م - ص : 431.
(16) موطأ الإمام مالك ،رواية : يحي بن يحي الليثي، إعداد : أحمد راتب عرموش، دار النفائس بيروت، ط.6 - 1402هـ/1982م - ص:11.
(17) الفكر المنهجي عند المحدثين، د. همام عبد الرحيم سعيد، كتاب الأمة رقم: 16، إصدار رئاسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية بدولة قطر، محرم1408هـ، ص: 118.
(18) مجالس التذكيُر من حديث البشير النذير، ابن باديس ، ص : 329.
(19) موطأ الإمام مالك، ص: 708.
(20) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة النفس والبهائم، 437/10، (مع الفتح)ومسلم في كتاب المساجد، باب من أحق بالإمامة،174/5 (بشرح النووي)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الصلاة ، باب إذا استووا في الفقه و القراءة أمّهم أكبرهم سنا، 120/3، وابن خزيمة 206/1.
(21) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، 554/2 برقم: 1950، و الهيثمي في مجمع الزوائد في كتاب الحج باب الخطب في الحج، 269/3.
(22) مجالس التذكير من حديث البشيّر النذير ، ابن باديس، ص: 327-328.
(23) السنة و مكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، ص: 430.
(24) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ابن باديس، ص: 262.
(25، 26) المرجع نفسه، ص: 265.(27) المرجع نفسه، ص: 268.
(28) أنظر المرجع نفسه، ص: 269-270.
(29) المرجع نفسه، ص: 272.(30) المرجع نفسه، ص: 273.
(31) أنظر المرجع نفسه، ص: 289-295.
(32) المرجع نفسه، ص: 296-297.(33،34) المرجع نفسه، ص: 297.
(35، 36) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، 472/5.
(37)آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، 140/6.
(38) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ابن باديس، ص: 289.
(39) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، ص: 59.
(40) المرجع نفسه، ص: 223-224.
(41) مجالس التذكير من حديث البشير النذير،ابن باديس، ص: 281.
(42) المرجع نفسه، ص: 281.(43) المرجع نفسه، ص: 279.(44) المرجع نفسه، ص: 282.

(45) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، 3/217-218.(46) أنظر المرجع نفسه، ص: 213-222.
(47) أنظر التقاريظ و أسماء أصحابها ووظائفهم و بلدانهم بالمرجع نفسه، 3/223-231.
(48) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، 6/102-105.
(49) على هامش السيرة د. طه حسين دار المعارف بمصر ط:25/1975 (المقدمة: ص: أ).
(50-51) المرجع نفسه (المقدمة: ص: ك).(52) المرجع نفسه (المقدمة: ص:و، ز)
(53) محاكمة فكر طه حسين أنور الجندي دار الاعتصام القاهرة د.ت - ص : 183-184.
(54) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس 6/ 102.